مقـــدمة ...

انطلاقا من فكرة توالد الأضداد ، خرجت هذه الدراسة إلي حيز الوجود .. إذ وجدتني وأنا بين أحضان حزني علي وفاة أمي ، وفي قبضة أفكاري عن الموت والعدم أفكر في البحث عن الضحك والضاحكين .. وكأنني أهرب من سطوة فكرة العدم إلي التعلق بنبراس للحياة ، وكأن الحوار مع النفس في تناوب بين الحزن والضـــحك كان محاولة للتعلق بأمل لمعاودة الحياة في مواجهة لمشاعر اليأس والمـوت .

وامتثالاً لسيطرة الفكرة علي ذهني ، كانت قراءاتي عن الضحك ، فنونه ، صانعيه نظرياته بدءا بكتب الفلسفة ومروراً بالكتابات الأدبية عن الفكاهة ثم انتهاء بعلم النفس حيث المحاولة العلمية لصياغة الفكرة في قالب سيكلوجي قد يكون فيه من نقاط الانطلاق ما يمكن عددا من الباحثين من الكشف عن حقيقة هذا الأمر - وهو استجابة الضحك - وبين الأبعاد النفسية للفرد من جهة ، والأبعاد الاجتماعية والسياسية للمجتمع الذي يحيا بين جنباته من جهة أخري .. وباتساع رقعة القراءات ، أخذت الفكرة تكسب كل يوم أرضاً جديدة ، وتزداد وضوحا وجلاء في الذهن .

وبقدر ثراء التراث علي اختلاف توجهاته ، كانت الوفرة في الأفكار التي يمكن للباحثين اتخاذها نقاط انطلاق لأبحاث علمية علي قدر كبير من الدقة ، خاصـــة وأن مجال الفكاهة برمته من المجالات التي لم نقترب منها بأبحاثنا الميدانية . فقد استغرقتنا دراسة الظواهر السلبية من السلوك الإنساني إلي حد أدي إلي إغفال مثل هذه الظواهر الإيجابية التي لا نشك في جدوي دراستها لفهم الإنسان وعلاقته بذاته ثم علاقته بالآخرين .

وقـــد يبدو للوهلة الأولي أننا نجمع في هذا البحث بين ظاهرتين باديتي التباعد ، خاصة وأن التراث النظري قد درج علي الربط بين الضحك وبين الظرف والمزاح وبهجة القلب وزوال الكدر ، مما يعني بأن الضحك نقيض للجد ، فما علاقته إذن بالعدوانية التي ترادف استخدامها مع التحطيم ، ثم مع الموت كما ذهب إلي ذلك فرويد في نظريته .. ؟

الحقيقة أن الغرائز الجنسية والعدوانية عند فرويد تعمل ضمن نسيج من ديالكتيكية الوجود البشري ، مما يفضي بالإنسان إلي أن يكون مزاجا من الشيء ونقيضه ، الأمر الذي يؤدي إلي تداخل الجنسية والعدوانية معا ..

ورغم ما تشير إليه الكتابات من تأكيد علي خطورة غريزة العدوان بقدر قد يفوق غريزة الجنس ، إلا أن الأولي لم تأخذ بحقها المناسب من الدراسة والبحث ، فضلا عن هذا ، فإن غريزة الجنس تجد لها العديد من المنافذ المشروعة أو المقبولة للإشباع ، كما يتبدي في الزواج ، والعلاقات التلقائية والأحاديث والمباهاة بالقدرة الجنسية وإن كان داخل جماعات محدودة ، أو كما تجسده الإبداعات الأدبية والفنية ، أو علي أقل تقدير في الأحلام والخيالات علي حد سواء .. في مقابل ذلك ، لا تجد العدوانية فرصا مشروعة ومقبولة للتعبير عن نفسها . فليست هناك الصورة الاجتماعية المشروعة التي يمارس فيها الإنسان عدوانه علي أخيه الإنسان بشكل مباشر ومعترف به اللهم إلا في بعض أنواع الرياضة البدنية (الملاكمة - المصارعة) .. كما أنه لا يوجد تقبل طبيعي يسمح للفرد بالتحدث عن رغبته في القتل مثلا .. الأمر الذي أدي إلي كبت هذه العدوانية ، والعمل علي التنفيس عنها في أشـــكال محورة ومقبولة كالتنافس الأكاديمي مثلاً ، أو الرياضي ، أو السيطرة الطبقية اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ، أو المظاهر السلوكية كالهجاء والسخرية .. ومن هنا ، أصبح تأكيد الذات في مواجهة الآخرين هو أحد التعبيرات المعاصرة المحوره للعدوانية ، حيث لم يعد السلوك العدواني وحده ممثلاً لكل مظاهر العدوانية كغريزة .

ويذكر الرخاوي في مقاله عن العدوان والإبداع ، أن اريك فروم في حديثه عن العدوان كتأكيد للذات حاول أن يدعم العدوان كخطوة أمامية ضد النكوص كخطوة رجوعية ، وذلك حين مناقشته للأصل اللغوي للكلمة . حيث تعني أصلا Ad gradi ، و gradus تعني خطوة step في حين تعني Ad تجـاه towards . فيكون العدوان (تحركا للأمام) مما يعني تأكيدا للذات .

ولقد أكد مخيمر علي المعني ذاته حين تعريفه للعدوانية بأنها أشبه ما تكون بالنيران التي تدمر بحريقها وتضيء بنورها وتتيح بحرارتها للحياة أن تتكاثر وتتواصل بحيث يصدر عنها التدمير كما يصدر عنها الإبداع والتكاثر .

وفي استجابة الضحك ، الكثير من معاني تأكيد الذات والإيجابية والشعور

بالسمو والتفوق في مقابل التحقير والازدراء للشيء أو الشخص المضحك . كما أشارت إلي ذلك وأكدته نظريات الضحك لبرجسون وغيره من كتابات التراث في هذا الصدد . فالضاحك سرعان ما يدخل إلي ذاته ويؤكدها في شيء من الزهو ، ثم ما يعد الغير إلا لعبة يمسك بأسلاكها ، وفي هذا الغرور ، يري برجسون شيئا من أنانية ، وشيئا أقل من العفوية ، وشيئا أكثر من المرارة .

وهكذا ، وانطلاقاً مما سبق في التراث السيكلوجي أو الأدبي ، أو الفلسفي ، كان الجمع بين هاتين الظاهرتين وإن تباعدتا في الظاهر ، إلا أن الصلة بينهما جد وثيقة .. ومن ثم ، كان هذا البحث الذي بدأناه بغرض التعرف علي شكل العلاقة بين الضحك وبين العدوانية في جانب منه ، ثم لمحاولة الكشف عن طبيعة العلاقة بين استجابة الضحك وبين بعض الأبعاد الأخري كالمرحلة العمرية مثلا ، أو النوع ، أو العمليات المعرفية كإدراك الفكرة مثلا في جانب آخر ..

والدراسة الراهنة تنقسم إلي بابين يضمان خمسة فصول ، يعالج الباب الأول بفصوله الثلاثة الضحك كما عرضت له النظريات الأدبية والفلسفية والنفسية في محاولة لتحديد الإطار النظري للبحث الميداني . إذ بينما تكفل الفصل الأول بتبيان زوايا الرؤي في تناول هذه الظاهرة مع التركيز علي العلاقة بين العدوانية واستجابة الضحك ، اختص الفصل الثاني بتحديد نقاط البحث التي انبثقت من استقراء التراث تبعناه بتحديد لمشكلة البحث وصياغة فروضه ، ثم بصياغة لمصطلحات البحث وعرض ما اختص بقياسها من أدوات ... هذا بينما تضمن الفصل الثالث وصفاً مفصلاً لمنهج البحث وخطواته متمثلاً في شرح أدوات القياس وتفصيلها وكيفية اختيار العينة والمنطق الذي تبعناه في هذا الاختيار ، مع عرض موجز لخطوات التطبيق والمعالجة الإحصائية للبيانات التي أسفر عنها التطبيق .

أما الباب الثاني ، بما اشتمل عليه من فصلين فقد تكفل بعرض نتائج البحث مناقشة ثم محاولة للتفسير للتعرف علي مدي تحقق الفروض السابق صياغتها تحديداً لِمَا أردنا معرفته من علاقات بين طرفي الدراسة .

فعلي حين عرضنا في الفصل الرابع النتائج الخاصة بالفرضين الأول والثاني من فروض البحث الميداني ، كان الفصل الخامس تفصيلا للنتائج التي اختصت بالتحقق من الفروض الثالث ، والرابع ، والخامس .. ولقد اتبعنا مناقشة النتائج

وتفسيرها بمحاولة لوضع هذه النتائج في الميزان من قبيل النقد الذاتي للبحث فكرة ، وأداة ، وتطبيقا ونتائج ، علنا نستطيع أن نبرز أهم ما وقعنا فيه من أخطاء قد تكون نبراسا لغيرنا من الباحثين في مجال علم النفس عامة ، وفي مجال الفكاهة خاصة ، يضيء لهم طريقهم في أبحاث مقبلة ..

ثم إنها محاولة بكل ما يكتنفها من مخاطر الإقدام علي دراسة ظاهرة جديدة ليس لها ما نستند إليه في القياس ، أو في الدراسات الميدانية السابقة عليها ، قد تعلمنا منها الكثير ، وأجابت علي بعض ما لدينا من حب للاستطلاع والمعرفة ، ونرجو لها أن تكون خطوة علي طريق الفهم العلمي لأحد أنواع السلوك الإنساني .

ولا يسعني في النهاية إلا أن أتقدم بجزيل شكري لكل من أدرت معه حواراً ، أو قدم لي فكرة ، أو ساهم معي في الحصول علي عينة الدراسة .. لهم جميعا شكري وامتناني .

عزيزة السيد

في

١٥/٣/١٩٩٠م